وجـــــود اللـــــه
لا بديل عنه في العلم الطبيعي

ا. د. / محجوب عبيد طه
قسم الفيزياء كلية العلوم
جامعة الملك سعود

الإيمان بوجود الله فطرة:

في السيـاق القـرآني الكـريم، وفي الحـديث النبوي الشريف، إشارات كثيرة توضح أن الإنسان السوي يؤمن فطرة بوجود الله، خالق الكون والحياة والإنسـان. وكـانت قضيـة الدعـوة الإسلامية مع الكافرين تتعلق بالتوحيد، وبطبيعة الصلة بين الخالق سبحـانـه وعبيـده من البشر وكذلك صحة الرسالة المحمدية وصدقها. وإلى عهد قريب من تاريخ العلم الطبيعي - ربما حتى نهاية القرن التاسع عشر - لم يكن ثمة ارتباط بين الإلحاد والعلم الطبيعي، بل كان مألوفًا أن يشير العلماء في كتاباتهم البحثية إلى روعة خلق الله وحسن تدبيـر الخـالق في تهيئـة صفـات المخلوقات بحيث تناسب أهدافها وتحقق مقاصدها. كان العلمـاء من أمثـال نيـوتن (ولعله أهم العلماء الطبيعيين في تاريخ البشرية) يتحدثون إلى الناس على أساس أن وجود الله مسلمة يقبلها الجميع، كما أن مقـولة «إن الصـدق فضيلة والكذب رذيلة» مسلمة يقبلها الجميع.

وبتطور مفاهيم العلم الطبيعي ونظرياته، وبعد النجـاح البـاهـر لتـطبيقاته التقنية، تغيرت ملامح الحياة الاجتماعية وتعقدت العلاقات بين الأجيال. فظهرت «الثورات» على المسلمات.. ومنها المسلمات في العادات والأخلاق والدين. وجاءت فترة أصبح فيها الإلحاد عند الشباب «تقليعة»... لا ترتكز على علم أو فلسفة أو تأمل. وبمرور الأيام غزا بعض هؤلاء عالم الفكر والعلم الطبيعي، ومنهم من برع فيه واشتهر، ففكـر وقـدر وصور للناس أن العلم الطبيعي صنو الإلحاد وداعيته. وأن التمسك بالعقيدة الإلهية من سمـات الجـاهليـة الذين لا يواكبـون تطور العلم الحديث وفتوحاته.

ونجد اليوم عددًا من ملاحدة علماء الطبيعة قدموا تصورات لنشأة الكون، وظهور المادة والحياة، يستفـاد منهـا ظنهم أن فرضية وجود الله لا تخدم غرضًا مفيدًا للإنسان المعاصر، وأن الفكر المبني على العلم الطبيعي ونظرياته يمكن أن يحل محل الدين في النـظر لبدايات الوجود ونهاياته، وفي مقاصد سننه وقوانينه. هؤلاء فئة آمنت بالعلم الطبيعي وبمقدرات الفكـر الإنسـاني، فخرجت به عن نطاقه المحدود، لتهتدي به في المرامي البعيدة، بعد أن أعمته بالظن والهـوى، فأضلها الله على علم: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون﴾ [الجاثية، ٢٣].

هدف هذه المقـالة التعرف على البدائل التي تطرحهـا هذه الفئـة عن الإيمان بوجود الله، خالق الكون ومدبره. وإذ أن الإيمان بوجود الله فطرة، فإن إنكاره مسخ تستنكره الفطرة السليمة، فكيف يقبله العقـل الذكي الفـطن؟ سنجد في الواقع أن هؤلاء يتحايلون على الفطرة الإيمانية تحايلاً يلبسها لبوس الإلحـاد. إذ ينتهون دائمًا إلى الاعتقاد بوجود خالق للكون أو للعقل أو للقانون... من خارج الكون المادي المشـاهد، الذي هو وحده موضوع العلم الطبيعي! الفطرة الإيمانية بوجود الخالق هي التي تظهر وتغلب وتبقى، مهما بدت المظاهر على عكس ذلك في البداية.

وقبـل أن أتنـاول أهم البـدائـل الإلحـادية المعروضة في مجال التفكر المبني على العلم الطبيعي، أقدم بعض الملاحظات عن سوء فهم علماء الطبيعة الملحدين للأساس العلمي للإيمان بالله في الديانات السمـاويـة. ثم أقـدم حجة عامة تبين استحالة ما يسعى إليه هؤلاء الملاحدة من محاولة تقديم «تفسير علمي» لظهور الكون والقوانين الطبيعية.

سوء فهم علمـاء الطبيعـة الملحـدين للأسـاس العلمي للإيمان بالله:

كل من قرأت لهم من العلمـاء الملحـدين (دون استثنـاء) يعتقدون أن أساس الإيمان بالله حاجة النـاس لتفسير ظواهر لا تفسير لها، ظواهر «أراد» الله حدوثها ولا نعلم لها سببًا سوى ذلك. معنى ذلك أن الأشياء التي تحدث حدوثًا طبيعيًا (أي لها ارتباط سببي معلوم) لا تتطلب وجود الله في ظنهم. ويدعون أننا نقول بأن الله خلق الحياة إذا كنا نجهل تفسيرًا علميًا لأصل الحياة. ولكن إذا صحت لدينا نظرية علميـة في أصل الحياة وقبلناها (كأن تكون الحياة نشـأت في بحـيرة دافئـة نتيجـة تفاعلات كيميائية لجـزيئـات معقدة تكونت عبر الآماد الطويلة)، فقد انتفت الحـاجـة للقـول بأن الله خلق الحياة، وعلى المؤمنين البحث عن ظاهرة أخرى يعلقون عليها علة إيمانهم.

مثل هذا الظن السقيم لا يخلو منه كتاب مما وقع في يدي من الكتب المعاصرة عن الفكر المترتب على العلم الطبيعي وصلتـه بالعقيـدة الدينية: هوكنق، واينبيرج، ديفيز، دوكنز وغيرهم. وهذا أمر غريب لأن العقيدة الإيمانية واضحة وميسورة، وليس من عذر عند هؤلاء المفكرين لخطأهم أو جهلهم بها.

جوهر العقيدة الإيمانية:

أن للوجـود خالقًـا، خلق الزمـان والمكـان والمـوجـودات وخلق القـوانين التي تتفاعل بها هذه الموجودات وتتطور في الزمان والمكان. كل ما يحدث يحدث وفق سننه، ويحقق مقتضى إرادته وتقديره. وما نعلمه من هذه القوانين والسنن، وما نراه ونحسه من الموجودات إنما هو الشيء اليسير الذي هيأ الخالق لنا إمكـانية الوقوف عليه، وفيه دليل على عظمة الخلق والخـالق، وعـلى بديـع صنعـه ودقيق تقديره فيما لا يمكن أن نحيـط به من كل صغـيرة وكبيرة في هذا الكون الشاسع، إذ كل مخلوقاته مهما دقت ولطفت أو غلظت وتضخمت مسـيرة بسننه وبمشيئته ﴿ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾ [الأنعام، ٥٤].

وكمـا أن معرفة السبب في الظاهرة البسيطة لا تنفي مشيئـة الله وتقديره، فإن معرفة السبب في الظاهـرة المعقدة لا تنفيها. لدينا نظرية واضحة في كيفيـة هطول المطر لم تمنعنا من الاعتقاد بأن الله أنزله؛ فلماذا تمنعنا نظرية (غير واضحة) في كيفية بدء الحياة من الاعتقاد بأن الله أنشأها؟

والواقـع أن معـرفة الكيفية التي تحدث بها الظواهـر هي كل ما نستطيع أن نحصله من العلم الطبيعي، وهذا ما أمرنا الله به، حتى في حالة بداية الخليقـة: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة، إن الله على كل شيء قدير﴾ [العنكبوت، ٢٠]. ومعـرفة الكيفية هي اكتشـاف القـانـون الطبيعي الذي بمـوجبه حدث الحدث، أو نشأت الظاهرة؛ أي التعرف على سنة الله فيمـا يتعلق بهـذه الظاهـرة، وهذه هي مهمة العلم الطبيعي الأساسي.

والذي يبني على الظن السقيم بأن الظواهـر التي تحدث بسبب معلوم لا تتطلب الاعتقاد بوجود الله، يحسب أن الدين هو الإيمان بالخوارق (super-natural). والواقع أن الدين عكس هذا تمامًا: المؤمن يعتقد أن كل ما يحدث يحدث بسبب طبيعي، أي وفق سنن الله وبتقديره، وليست هناك ظواهر تخرق سنن الله في الكون إلا أن يشاء الله. وإذا تحدث المرء لغة عن «الخارق» و«الطبيعي»، بمعنى مجهول السبب ومعلومه، فإنما مرد هذا لقصور المعرفة البشرية - وقد يكون قصورًا مرحليًا - ولا صلة له بالعقيدة إطلاقًا!

أنتقل الآن للحديث عن صلب الموضوع، وهو ما يطرحـه العلمـاء الرافضـون للدين بدائـل عن الإيمان بوجود الله، خالق الكون ومسيّره. على هؤلاء أن يجـدوا في العـلم الطبـيعي ما «يفسر» الكـون والقانون. وقبل أن أخوض في البدائل المطروحة فعلاً أود أن أقدم حجة تبين استحالة تفسير ظهور الكون والقانون على أساس من العلم الطبيعي.

حجتي في هذا مبنية على معنى «التفسير» في العلم الطبيعي. التفسـير هو الربـط بين الظاهـرة المعقـدة والظواهـر البسيـطة بالقـانـون الطبيعي. الظواهر البسيطة هي الظواهر التي نعلم كيف ينطبق القـانـون عليهـا. معنى ذلك أننـا عندما نفسر كل الظواهر المشاهدة نكون قد علمنا الكيفية التي ينطبق بهـا القانون على حدوثها وتطورها. ويوضح هذا أن عملية تفسير الظواهر هي عملية اكتشاف القوانين الطبيعية، لأننا نضيف قانونًا جديدًا كلما صادفتنا مجموعة من الظواهر لا تفسير لها في نطاق القوانين المعلومـة سلفًـا. ونهاية المطاف أن نختصر القانون الطبيعي الشامل في صيغة رياضية موجزة هي أكمل وصف ممكن لسلوك المـوجـودات المشـاهـدة. هذا القـانـون الشامل (إذا ما توصلنا إليه) هو تفسير «العلم الطبيعي» لكل الظواهر ولكل القوانين الجزئية المتعلقـة بهـا. ولن يكون لدينا تفسير لهذا القانون الشامل.. بل ليس له مبرر سوى أنه ما وجدنا عليه هذا العالم. وإذا كان هذا هو قصارى ما يمكننا منه العلم الطبيعي، فبديهي أننا لن نتمكن من «تفسير» ظهور الكون من حالة لم يكن فيها الكون موجودًا. لأن ما بين أيـدينا ليس إلا وصفًا للكون في حالاته المختلفة وهو موجود. وما نحتاجه لتفسير ظهور الكون من العلم قانون سابق لوجود الكون، والذي يستحيل أن يكـون موجودًا ضمن القانون الطبيعي الشامل الذي حصلناه وصفًا موجزًا للظواهر المشاهدة.

في ضوء هذه الحجـة انـظر الآن في البدائل المـطروحـة لتفسير الكون والقانون في نطاق «العلم الطبيعي». سنجد أن هذه البدائل ليست من العلم الطبيعي، وإنما هي في الواقع عقائد دينية، ويمكن اعتبـارهـا صور الإيمـان بوجود الله! ويحسن أن نوضح هنا أن تعريفنا للعلم الطبيعي هو أنه مجموعة التقارير التي يمكن اختبار صحتها بالتجريب.

(١) فكرة الكون العملاق (Megauniverse):

جاء بهذه الفكرة الفيزيائي - الفلكي الروسي أنـدر لينـدا وآخـرون، ليقـولوا إننـا في الحقيقـة لا نستطيع أن نجزم بأن الكون بدأ منذ فترة معينة لم يكن موجودًا قبلها [وهذا ما تدل عليه المشاهدات ويحرج الملحدين] إذ من الممكن تصور كون عملاق، أزلي وأبـدي، تتولد منه الأكوان بصفة دائمة، هي فقاعات صغيرة تتمدد أو تنكمش أو تنفجر، ولكل منها أجل محدود. من هذه الفقاعات كوننا الذي نحن فيه. إذن فإن بدايـة عالمنـا أو نهايته ليست هي بداية الكون العملاق أو نهايته، ولسنا بحاجة للحديث عن خالق، لأن عالمنا تولد عن الكون العملاق وفق قوانين «طبيعية»، والكون العملاق أزلي وأبدي، يخلق ولا يخلق!

تعليقنا على هذا التصور باختصار أنه ليس من العلم الطبيعي في شيء (إذ لا يحقق شرطه، كما أن القـانـون الذي تظهر بموجبه العوالم الصغيرة لن يكـون ضمن القـانون الشامل الذي يصف سلوك عالمنا)، إضافة إلى أن فرضية وجود الكون العملاق هي عقيدة الإيمان بوجود خالق لهذا العالم المشاهد؛ كل ما هناك أنهم كتبوا «الكون العملاق» مكان الذات الإلهيـة، وتصـوروا أن خلق الله يشمل هذا الكون وسواه، وأن خلقه حادث زائل وهو - سبحانه - قديم باق لا يزول ولا يفنى!

(٢) فكرة الكون الذكي (Intelligent Universe):

هذه فكـرة الفيزيائي الفلكي الإنجليزي فرد هويل، مفادها أن الكون مادة وفكر، أو وعي أو ذكاء. وكمـا أن مادة الكون تتطور وتتحول من مرحلة إلى مرحلة [وهو لا يأخذ بالنظرية المعقدة في تطور الكون، نظرية «الفرقعة الكبرى»]، فإن الوعي يتطور كذلك ويتحـول وفقًـا لتـطور المادة وتحولاتها، في أشكال تنـاسّب كل مرحلة وتضمن استمـراريتـه. والوعي البشري الراهن ووعـاؤه الحيـاة المبنية على عنصر الكربون (المادة العضوية) هو الشكل المرحلي الحالي الذي يناسب مكونات العالم المادية التي نجدها الآن. ووضـع الذكاء في وعاء البنية العضوية الحالية من صنـع وعي ذكي سابق للذكـاء البشري ازدهـر في مرحلة سابقة من مراحل تطور الكون المادي. على أن كل هذا يتم تحت سيطرة إرادة ذكية مهيمنة، ملأت العالم بالأوعية الدقيقة التي تحفظ الذكاء [على شكل بكتيريا في كل الفضاء الكوني في عصرنا هذا] وتمكنه من الاستمرار والتطور. هذه الإرادة الذكية المهيمنة توجـه كل مرحلة من مراحـل الوعي الذكي لتنمـو وتزدهر وتخلق المرحلة التي تليها بما يناسب تطور مادة الكـون. وهي التي وجهت المادة الجامدة من

الفوضى إلى النظام الدقيق المبرمج لتصنع الأوعية التي حفظت الذكاء: أي هي التي وجهت التطور نحو نشأة الحياة، ثم نحو تميز الإنسان. كل هذا بلمسات لطيفة غير محسوسة، لكن بذكاء وإرادة.

لا شك أن هذا التصور عقيدة، مثل أية عقيدة دينية، صلتها الوحيدة بالعلم الطبيعي أن هويل فيزيائي فلكي شهير. مثل التصور السابق يقتضي هذا التصور أزلية العالم المادي وأبديته، في صور وأشكال قد لا تشبه عالمنا المعاصر في كثير، وليس مهمًا لدى هويل القانون الطبيعي الذي يؤدي من مرحلة إلى أخرى. ويزيد هذا التصور عن سابقه بفكرة الإرادة الذكية المهيمنة التي تبسط سيطرتها في كل أرجاء الكون لتتأكد من استمرارية الذكاء في الوسط الكوني المادي. هذه الإرادة الذكية في الحقيقة إله، لا يَخلق من العدم، ولكنه يَخلق من الموجود، يَخلق أكثر أنواع المخلوقات تعقيدًا ـ الأحياء الذكية ـ من الجماد الفوضوي، ثم يرعاها وينميها ويوحي إليها أن تتخذ أشكالاً جديدة كلما دعت الحاجة.

كيف يرفض من يقول بهذا أن يكون الله سبحانه قد أوحى لمن اختار من عباده برسالة السماء؟ الأديان السماوية تقول: إن الذات الإلهية أوحت للرسل، فأفادت عن ذاتها ومخلوقاتها، ولم تترك استنباط حقائق الوجود الكبرى للظن والتخمين والأوهام.. لماذا لم يقبل هويل هذا، وهو أقرب من دعوى وحي من الذات الذكية لجزيئات المادة كي ترتب نفسها، فتشكل جزيئات كبيرة معقدة، تتكاثر لتحفظ الوعي والذكاء!؟

إنصافًا لهويل أذكر أنه «لا ـ أدري» فما يتعلق بالدين، فقد قال في الختام «ربما يكون الدين صحيحًا، من يدري؟». مشكلته في قبول الدين السماوي قضية الخلق: الكون عنده أبدي أزلي لم ينشأ ولم يخلق، وله في هذا نظرية كونية قديمة، قدمها في عام ١٩٤٨م، لا أعتقد أن أحدًا من علماء الكون المعاصرين يأخذ بها؛ وقد أيدت كل المشاهدات نظرية «الفرقعة الكبرى» المعتمدة.

(٣) فكرة أن «ميكانيكا الكم» تحكم الوجود:

هذه فكرة عدد من علماء الكون المعروفين، منهم ويلر Wheeler ، دي وت De Witt ، هوكنج Hawking ، هارتل Hartle وآخرون، بأن الكون نظام معزول تحكمه دالة موجبة وفق قواعد ونظم ميكانيكا الكم. بوساطة هذه الدالة التي لا تحتاج لأية معطيات ابتدائية، تفسر ميكانيكا الكم إمكانية وجود الكون المتميز عن العدم، وتحدد حالاته الممكنة وتعطي احتمالات حدوث كل حالة. هذا النظام مغلق، ليست عليه مؤثرات خارجية، وتنتفي فيه الحاجة لافتراض وجود خالق.

هذه الفكرة مبنية على فرضية وجود قانون يحكم الوجود ويفسر تحقيق الكون المشاهد بتبيان أن عدم تحقيقه أقل احتمالاً من تحقيقه، وتحديد الحالات التي يمكن أن يكون عليها واحتمال كل منها. وهذا القانون ـ ميكانيكا الكم ـ جزء من «القانون الشامل» الذي حصلناه من الداخل، إلا أنه يصل الآن من الخارج. هنا تكمن فرضية عقدية مهمة: القانون الذي يصف سلوك المادة كان موجودًا قبل وجود هذه المادة وهو مسؤول عن تخليقها! هذه الفرضية تكافىء الاعتقاد بأن للقانون الطبيعي مصدرًا خارج الكون لا نعلمه، وأن هذا المصدر موجود والكون غالب! ولا يقع هذا ضمن حدود العلم الطبيعي.

ولنفترض جدلاً أن هذه الفكرة مقدمة في نطاق عقيدة إيمانية، كيف نتحقق من صحتها تجريبيًا؟ كيف نختبر الادعاء بأن هذه هي الكيفية التي حقق الله بها خلق المشاهد من العدم؟ للتأكد من صحة تنبؤات نظرية الكم يلزم وجود مشاهد ـ خارج النظام ـ يجرى قياسات عليه؛ وهذا يقتضي التأثير على النظام بمؤثرات خارجية ودراسة استجابة النظام للتأثير. كيف يتحقق هذا في حالة الكون المعزول وليس من مشاهد ولا مؤثر خارجه؟

كل ما نستطيع أن نفعله في الحقيقة هو محاولة التأكد ـ من الداخل ـ مما إذا كانت هذه الدالة الكمية تحكم العالم المشاهد بعد خلقه، أي مما إذا كانت هي «القانون الشامل» الذي يصف سلوك المادة في العالم المشاهد. وحتى هذه ـ وهي في حدود العلم الطبيعي ـ لا تخلو من مشكلات بسبب أن ميكانيكا الكم إحصائية، وتتطلب تطبيقاتها وجود عدد كبير من النظم المتماثلة تتوزع على الحالات الكمية الممكنة. لحل هذه الإشكالية اخترعوا فرضية «العوالم المتعددة»، التي تفترض أن العالم ينقسم تلقائيًا إلى عدد كبير من «النسخ» عند كل عملية قياس، يحقق كل منها إحدى الحالات الممكنة، ونكون نحن في النسخة التي تحقق الحالة المناسبة لها، لا ندري عن وجود النسخ الأخرى شيئًا ! هناك كثيرون يقبلون هذه الفرضية ضمن العلم الطبيعي التجريبي، ولا يقبلون عقيدة وجود الله الواحد الأحد !

وعلى أي حال فإن ما يهمنا هنا هو توضيح أن فكرة الدالة الموجبة للكون المعزول لا تقدم حلاً لإشكالية ظهور الكون من العدم في حدود العلم الطبيعي. كما يلزم أن نشير إلى أن هذه الفكرة تفترض أن القانون الذي يحكم الخلق ـ ميكانيكا الكم ـ معطى، ولا تحاول تفسيره أو تبريره.

خاتمة:

الحجة التي استدللنا بها على استحالة «تفسير» ظهور الكون والقانون على أساس من العلم الطبيعي قائمة، ولا مناص من قبول دلالتها. والعقيدة بأن الإيمان فطرة حق لا سبيل لإنكاره. وفي الأمثلة الثلاثة التي أوردناها ما يوضح لزوم الخروج عن نطاق العلم الطبيعي من أجل التفكر الواعي في نشأة الكون والقانون. ويبين أن مثل هذا التفكر لا يخلو من وجه من وجوه الإيمان الذي فطر الله الناس عليه، وإن تسربل بسرابيل جحوده ونكرانه. وخلاصة القول إن هذه المقالة تبيان أن العلم لن يعطي بديلاً عن الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى.